

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم وإنما تعلقوا بقولهم { مال هذا الرسول يأكل الطعام } يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه { ويمشي في الأسواق } أي يتردد فيها وإليها طلبا للتكسب والتجارة { لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا } يقولون : هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهدا على صدق ما يدعيه وهذا كما قال فرعون { فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين } وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ولهذا قالوا { أو يلقي إليه كنز } أي علم كنز ينفق منه { أو تكون له جنة يأكل منها } أي تسير معه حيث سار وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة { وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا } قال الله تعالى : { انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا } أي جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر وكلها أقوال باطلة كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك ولهذا قال { فضلوا } عن طريق الهدى { فلا يستطيعون سبيلا } وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال حيثما توجه لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضا .

ثم قال تعالى مخبرا نبيه أنه إن شاء لآتاه خيرا مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن فقال { تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك } الآية قال مجاهد : يعني في الدنيا قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرا كبيرا كان أو صغيرا قال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة : [قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيا قبلك ولا نعطي أحدا من بعدك ولا ينقص ذلك مما لك عند الله] فقال : اجمعوها لي في الآخرة [فأنزل الله في ذلك { تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك } الآية . وقوله { بل كذبوا بالساعة } أي إنما يقول هؤلاء هكذا تكذبا وعنادا لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال { وأعتدنا } أي أروصدنا { لمن كذب بالساعة سعيرا } أي عذابا ألما حارا لا يطاق في نار جهنم قال الثوري عن سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير { السعير } واد من قيح جهنم وقوله { إذا رأتهم } أي جهنم { من مكان بعيد } يعني في مقام المحشر قال السدي : من مسيرة مائة عام { سمعوا لها تغيظا وزفيرا } أي حنقا عليهم كما قال تعالى : { إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور * تكاد تميز من الغيظ } أي يكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها على من كفر بالله .

وروى ابن أبي حاتم : حدثنا إدريس بن حاتم بن الأحنف الواسطي أنه سمع محمد بن الحسن الواسطي عن أصبغ بن زيد عن خالد بن كثير عن خالد بن دريك بإسناده عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : [قال رسول الله] : من يقل علي ما لم أقل أو ادعى إلى غير والديه أو انتمى إلى غير مواليه فليتبوأ مقعده من النار - وفي رواية - فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا قيل : يا رسول الله وهل لها من عيين ؟ قال : أما سمعتم الله يقول { إذا رأتهم من مكان بعيد } الآية [ورواه ابن جرير عن محمد بن خدّاش عن محمد بن يزيد الواسطي به وقال أيضا : حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا أبو بكر بن عياش عن عيسى بن سليم عن أبي وائل قال : خرجنا مع عبد الله يعني ابن مسعود ومعنا الربيع بن خيثم فمروا على حداد فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار ونظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل الربيع ليسقط فمر عبد الله على أتون على شاطيء الفرات فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية { إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا } فصعق يعني الربيع وحملوه إلى أهل بيته فرابطه عبد الله إلى الظهر فلم يفق .

وحدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار فتشقق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف هكذا رواه ابن أبي حاتم بأسناده مختصرا وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن الرجل ليجر إلى النار فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض فيقول لها الرحمن : ما لك ؟ قالت : إنه يستجير مني فيقول : أرسلوا عبيدي وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول : يا رب ما كان هذا الظن بك فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تسعني رحمتك فيقول : أرسلوا عبيدي وإن الرجل ليجر إلى النار فتشقق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف وهذا إسناد صحيح .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن منصور عن مجاهد عن عبيد بن عمير في قوله { سمعوا لها تغيظا وزفيرا } قال : إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه ترتعد فرائضه حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجنو على ركبتيه ويقول : رب لأسألك اليوم إلا نفسي وقوله { وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين } قال قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : مثل الزج في الرمح أي من ضيقه وقال عبد الله بن وهب : أخبرني نافع بن يزيد عن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [أنه سئل عن قول الله] { وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين } قال : والذي نفسي بيده إنهم ليستكروهن في النار كما يستكروه الودد في الحائط] .

وقوله { مقرنين } قال أبو صالح : يعني مكتفين { دعوا هنالك ثبورا } أي بالويل والحسرة

والخيبة { لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا } الآية روى الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن يزيد عن أنس بن مالك [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه وينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فيقول يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم فيقال لهم لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا] لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان عن عفان به ورواه ابن جرير من حديث حماد بن سلمة به وقال العوفي عن ابن عباس في قوله { لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا } الآية أي لاتدعوا اليوم ويلا واحدا وادعوا ويلا كثيرا وقال الضحاك : الثبور الهلاك والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار كما قال موسى لفرعون { وإني لأظنك يا فرعون مذبورا } أي هالكا وقال عبد الله بن الزبير : .
(إذ أجاري الشيطان في سنن الغد ... ي ومن مال ميله مذبور)